

مساهمة الشعانبة في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري - ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864-1880) - أنموذجا -

The contribution of Al-Shaanba to the popular revolutions in southern Algeria –the revolutions of Awlad Sidi ALSheikh (1864-1880)-a model-

أ.د/ دليوح عبد الحميد	ط.د/ صورية دين*
جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)	جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)
abdelhamid.dliouah@univ-alger2.dz	souria.dine@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 08/12/2022 تاريخ القبول: 12/04/2023

المخلص:

لقد انخرط الشعانبة عموما وشعانبة بورزقة خصوصا في مقاومة الاحتلال الفرنسي قبل أن تصل قواته إلى دواخل البلاد، وذلك من خلال مشاركتهم في مقاومة الأمير عبد القادر، ونصرة الثائر بوحماره الدرقاوي، والانخراط بقوة في جيش الشريف محمد بن عبد الله. إلى جانب ذلك، شارك الشعانبة في ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة بوشوشة، وأخيرا ثورة الشيخ بوعمامة الذي تواصل معهم قبل إعلان ثورته ولم تقتصر مشاركتهم معهم بشكل متطوعين فقط، بل قاموا بتقديم الدعم المادي كدفع الاشتراكات والصدقات والهبات ومواد التمويل، وظلوا معه إلى غاية مغادرته التراب الجزائري باتجاه المغرب الأقصى سنة 1896 م.

الغرض الرئيسي من هذه الورقة البحثية هو التعرف على دور الشعانبة عامة وشعانبة متليلي خاصة في مقاومة المستعمر الفرنسي بالجنوب الجزائري، ودعمهم ومساندتهم الكبيرة لمقاومة أولاد سيدي الشيخ، حيث كانت لهم جهود في مواجهة الإستعمار، فكان من أبرز أدورها أنها كانت منطلقا للثورة، والتي استمرت حوالي ست عشرة سنة حيث لقيت من شعانبة متليلي السند والدعم المادي والروحي طيلة مراحل الثورة

كلمات مفتاحية: الشعانبة؛ الثورات الشعبية؛ الجنوب الجزائري؛ الصحراء الجزائرية؛ الاحتلال الفرنسي.

Abstract:

Al-Shaanbe in general and Al-Shaanbe Bourzga in particular were involved in resisting the French occupation before his forces reached the interior of the country, through their participation in the resistance of Emir Abdelkader, the support of the rebel Bouhamara Al-Derqawi, and their strong involvement in the army of Sharif Muhammad bin Abdullah.

In addition, Al-Shaanbe participated in the revolution of the sons of Sidi Sheikh and the Bouchoucha revolution, and finally the revolution of Sheikh Bouamama, who communicated with them before announcing his revolution, and their participation with them was not limited to volunteers only, but they provided material support such as paying subscriptions, alms, gifts and financing materials, and they remained with him until the end He left Algerian soil towards Al-Aqsa Morocco in 1896 AD.

The main purpose of this research paper is to identify the role of Shaanabeh in general and Shaanabeh Metlili in particular in resisting the French colonizers in southern Algeria, and their great support and support for the resistance of the sons of Sidi Sheikh, as they had efforts in confronting colonialism, so one of its most prominent roles was that it was a starting point for the revolution, which lasted about Sixteen years, where I received support from Shaanabeh Mutlili, material and spiritual, throughout the stages of the revolution

1. مقدمة:

أدت سياسة فرنسا الإستعمارية في إحتلال الصحراء عامة والجنوب خاصة إلى ظهور مقاومات شاركت فيها جل القبائل الصحراوية، ومن بين هذه القبائل قبائل الشعانبة التي ساهم سكانها في التصدي للمستعمر الفرنسي وتوسعه في الصحراء الجزائرية، هذه المساهمة شكلت بالنسبة للمستعمر عائقا كبيرا، فأرسلت إليه العديد من المستكشفين والجواسيس؛ للتعرف على التفاصيل الدقيقة عن الشعانبة ومدينتهم غايتهم في ذلك إعطاء لمحة مفصلة عن المدينة قصد تسهيل السيطرة عليهم .

لقد قاد الشعانبة حركة ثورية ضد الإحتلال الفرنسي الغاشم كان لها صدى في المنطقة وما جاورها من القبائل الأخرى، مما أدى بالإستعمار الفرنسي لفرض حصار على مقدرات القبيلة من الناحية الإقتصادية والتدخل في الشؤون الإجتماعية والثقافية وذلك لخنق المقاومة وفرض حصار عليها، لكن الشعانبة تصدوا لهم بكل ما أوتوا من قوة ومن رباط الخيل، وذلك في الفترة الممتدة ما بين 1864-1880م

ومن هذا المنطلق تبرز أهمية الموضوع في التعرف على ما مدى مساهمة الشعانبة في الثورات الشعبية في الجنوب الجزائري، خاصة ثورة أولاد سيدي الشيخ والتي لعب فيها شعانبة متليلي الدور البارز فيها .

وعليه يطرح الإشكال الرئيسي: ماهو الدور الهام الذي لعبته الشعانبة عامة وشعانبة متليلي خاصة في مقاومة أولاد سيدي الشيخ ومنه يطرح التساؤلات الآتية :

من هم الشعانبة؟ وأصل تسميتهم؟ وماهي فروعهم؟ وما دور شعانبة متليلي في ثورة أولاد سيدي الشيخ؟

واتبعت في دراستي لهذه الورقة البحثية المنهج التاريخي الذي يمزج بين الوصف من خلال رصد وتتبع الأحداث التاريخية، والتحليل قصد إبراز المساهمة الفعالة للشعانبة في مقاومة أولاد سيدي الشيخ، وذلك من خلال الاعتماد على المصادر والمراجع التاريخية .

2. التركيبة الديموغرافية للسكان:

2.1 أصل الشعانبة:

جاء في مختلف الكتابات والروايات التاريخية حول أصل قبيلة الشعانبة، حيث يرى ابن خلدون أن أصل الشعانبة يعود إلى قبيلة سليم بن منصور بن عكرمة القيسية العدنانية، وهم ينحدرون من بطن علاق بن عوف بن بثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وكان وفودهم على المغرب في التغريبية الشهيرة لبني هلال وبني سليم

ومعقل، وذلك عندما سمح لهم المستنصر بالله الفاطمي اجتياز النيل والمرور إلى المغرب سنة 443هـ/1052م لمواجهة الدولة الزيدية المتمردة على الخلافة الفاطمية لهم، وذلك بقيادة رافع بن حماد رئيس فرع علاق بن عوف¹.

ويقول إسماعيل العربي "تنحدر قبيلة الشعانية من علاق، من عوف، من سليم بن منصور، من العدنانية، جاءوا إلى إفريقيا الشمالية مع الموجة الأخيرة للغزو الهلالي في أوائل القرن 14م². أما دوماس واستنادا على رواية إنتقاها من الشعانية حسب قوله يعود إلى إقليم وهران، حيث يذكر ما يلي: "يقول الشعانية عن أنفسهم أنهم ينحدرون من عائلة واحدة استقرت في منطقة التل، تتكون من سبعة إخوة وأن أصلهم من إقليم وهران". حيث يضيف قائلا: "أن الأخ الأصغر في العائلة المسمى ثامر بن تولال، ونظرا لمضايقات إخوته له، بعد وفاة والدهم خرج مع زوجته وأولاده الصغار وبعض الخدم هائما نحو الجنوب، وما لبث أن لحق به شقيقه ظريف لنفس الأسباب وتاه الأخوين ومن كان معهم متنقلين بين الجبال والسهول إلى أن إهتديا إلى وادي متليلي، واستقرت القافلة هناك، فاستقر ثامر في الغرب وأخوه ظريف في الشرق وكبرت العائلتين وتضاعف أصحابها وأقاما مدينة حملت إسم النبع الذي إستقرا به وأقاموا خيامهما حوله"³. بينما نجد لبوقولت "Baugult" رواية أخرى حيث يرد أصل الشعانية إلى سوريا بقوله "في بداية القرن 14م قدم إلى إفريقيا الشمالية عن طريق الحملة الصليبية الأخيرة فرقة من الرحل السورية لأولاد مدحي، هؤلاء الرحل بقوا في المنطقة الوهرانية لفترة من الزمن، واستمرت الهجرات بعدما إختل نظامهم ووصل بعضهم إلى متليلي"⁴.

وتتقارب هذه الرواية مع رواية الملازم دارميناك "Lieutenant D'armagnac"، حيث يذكر: "في القرن الرابع عشر الميلادي، وفدت مجموعة من البدو الرحل أصلهم من قبيلة سورية، لأولاد ماضي إلى شمال إفريقيا، إبان الحملة الأخيرة للدخول الهلالي، حيث مكثوا بوهران لفترة طويلة، في إطار الهجرات المتتالية"⁵. أما بيساجي فيرجع إلى أن أصولهم من اليمن حيث قدموا من هجرتهم الثانية، ويصفهم بحكيم للرعي، بحيث تمركزوا في أعالي جبال لعمور ثم نزحوا إلى زاوية أولاد سيدي الشيخ، بعدها إلى قصر متليلي⁶. لكن رغم بعض الاختلافات حول أصل الشعانية إلا أن أغلب الكتابات التاريخية تذكر أنهم من عرب بنو سليم القيسية العدنانية، التي هاجرت إلى بلاد الجزائر في قسمين هما: ذياب بن مالك، وعوف بن بختة الذي يتفرع منه مرداس وعلاق ومن علاق حصن ومن حصن بنو علي وبنو حكيم، وهذا الأخير يأتي منه أصل الشعانية والذي يتفرع منه كل من، أولاد صابر، غير، جوين، زياد، مقعد، ملاعب، أحمد، نوة، مهلهل، رياح بن يحيى وحبيب⁷.

22. معنى كلمة الشعانية:

¹ عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط 1421-2000، ص 20-94.

² إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، سلسلة الدراسات الكبرى، الجزائر، 1982، ص 163.

³ Dumas Eugène : **Le grand désert, ou Itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des Nègres** (royaume de Haoussa), Imprimerie et Librairie centrales de Napoleon Chaix et Cie, Paris 1848, p309

⁴ Baugault: **Metlili Berceau de Chaamba**, Paris, 1986, p119

⁵ Lieutenant D'armagnac: **Le Mzab et les pays Chaamba**, Edition Braconnier 1933, p122

⁶ Paul François Michal Passager: **Metlili Chaamba (Sahara Algeria)**, Center de documentation, saharienne, sans date, p509

⁷ أحمد توفيق المدني: تاريخ الجزائر وجغرافيتها الطبيعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، الطبعة العربية، ط 5، ص 137/136.

اختلفت الروايات حول معنى تسمية الشعانية، فالبعض يري بأن أصل كلمة الشعانية هي تركيبة مركبة من كلمتين شعاع ونبأ، أو شعاع وبان؛ أي شعاع ظهر وهي ترمز لخصلة كانت متأصلة في قبيلة الشعانية وهي الجود والكرم، فقد كانوا قديما يشعلون النار لكي يهتدي بها الضال ويقصدهم بها المسافر لكي يستضيف عندهم، ويرشدونه الطريق الصحيحة حتى شاع بين العرب ذلك، وتداول الكلمتان تداخلت وأصبحت كلمة واحدة وهي الشعانية⁸. في حين يقول رأي ثاني حسب المصادر المنقولة شفهيًا، أن أغنام القبيلة لها قرون دائرية يطلق عليها اسم شعب وجمعها شعانب⁹. وقيل أن جدهم بربري من مسوفة من فرقة المثلثين يسمى شعبانا ويقال لأولاده الشعانية، فتصرفت في ذلك الألسن بالقلب وذلك بوضع النون مكان الباء¹⁰. وبعد البحث في الروايات نرى أن الرأي الراجح في ذلك هو: أن أصل تسمية الشعانية يعود إلى التركيب اللفظي لكلمتي شعاع ونبأ أي ظهر وبان، وذلك راجع إلى أن سكان المنطقة مشهورون بالكرم والجود إلى يومنا هذا، حيث يقول شاعرهم:

رأيت كريما خلّقه من حمى *** يزار ولو أن الديار بلاقاع
ولا مرضت نار القرى في خيامه *** بليل ولو أن الرياح زعازع
إذا صارعته الريح خلنا شعاعها *** يشير إلى الوارد والركب هاجع¹¹

3.2 فروعهم: القسم الأول: شعانية بورزقة¹²: في جنوب وادي متليلي ومدينة غارداية وهم يسيطرون على منطقة شاسعة من الصحراء تمتد حتى وادي لواه ووادي زرقون غربا وجيرانهم فيها أولاد يعقوب، الدواودة من رياح الهلالية¹³. ويعتبر شعانية متليلي (البرازقة) من أكبر جماعات الشعانية عددا، وهم ينقسمون إلى ثلاث عروش كبيرة حسب التقسيم الاستعماري، وهي عرش أولاد علوش، عرش أولاد عبد القادر، عرش القصر، وهذه العروش تنقسم إلى فرق وهي كالاتي:

⁸ عبد الحميد مسعود بن ولّة: أبناء الشعانية ومراحل التطور الحضاري لبلاد الشبكة سكانيا عقائديا وعمرانيا، دار الصبحي للطباعة والنشر، غرداية-الجزائر، ط1، 2014 م، ص60

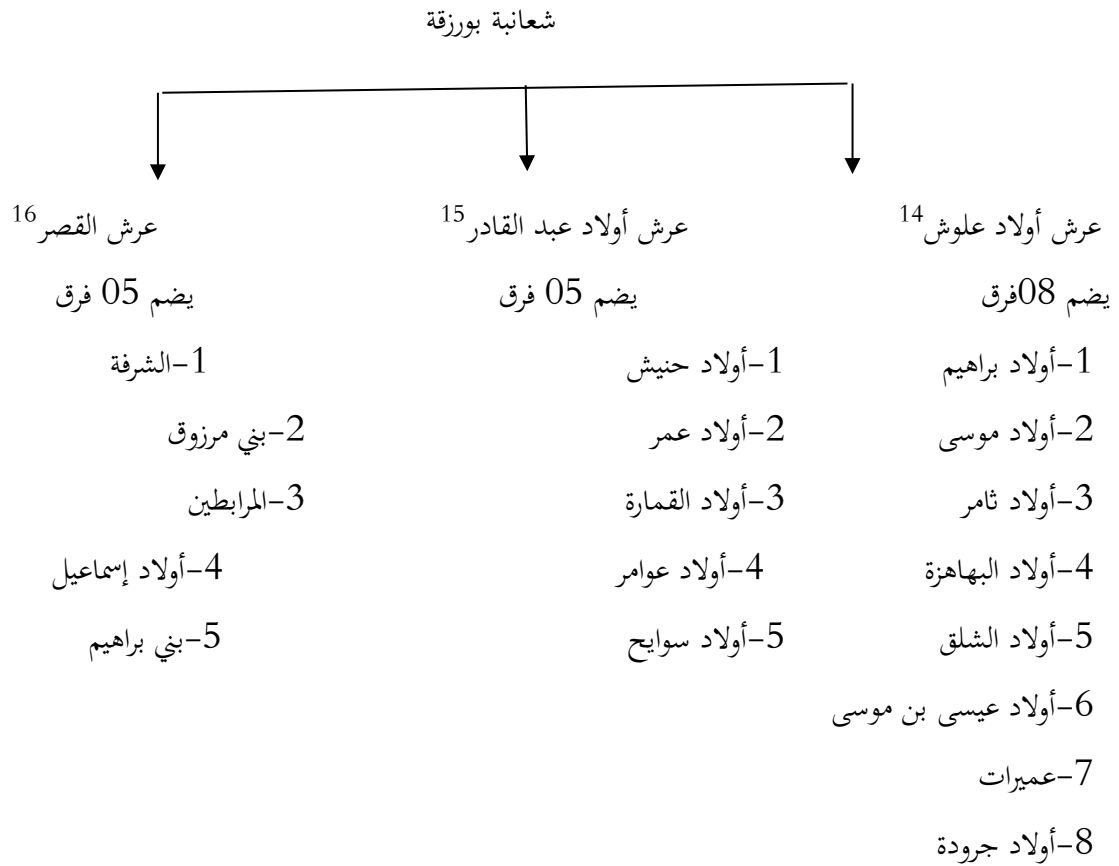
⁹ سليمان بوغلاية: الشعانية ومساهماتهم في المقاومة الوطنية -1851-1919، دار النشر متليلي، ط1، 2007 م، ص14.

¹⁰ إبراهيم بن محمد بن ساسي العوامر: الصروف في تاريخ صحراء واد سوف، تعليق الجيلالي إبراهيم العوامر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ص374/373

¹¹ عبد الحميد مسعود بن ولّة: المرجع السابق، ص33

¹² سمو بذلك نسبة إلى زعيمهم المشهور في الصحراء وهو بورزقة أحمد بن أحمد .

¹³ سليمان محمد الطيب: موسوعة القبائل العربية، ج1، دار الفكر العربي، ط2، 1418هـ/1998م، ص109



الشكل 1: شعانة بورزقة : (المصدر، من إعداد الباحثة)

هذا وبالإضافة إلى بعض المجموعات من الزوى (الذين ينحدرون من أسرة أولا الشيخ الوافدون من لبيض سيدي الشيخ بولاية البيض)، وكذا الزوج وغيرهم إلتحقوا بهذا التجمع القبلي مع مرور الزمن .بينما يقول إسماعيل العربي : " ينقسم الشعانة بصفة عامة إلى صنفين أو معسكرين يسمى أحدهما (الشرافة) وهو تقدمي منفتح ،والآخر (الغربة) وهو محافظ منغلق ،وأولاد علوش ينتمون إلى هذا الصنف الأول بينما أولاد عبد القادر إلى الصنف الثاني¹⁷ .

وإليك الجداول الآتية تبين الإحصائيات السكان لكل عرش لسنة 1896م مأخوذ من الإدارة الفرنسية آنذاك¹⁸ .

الجدول 1: إحصائيا السكان لجماعة القصر لسنة 1896م

¹⁴ Passager P : **Metlili des Chaambas (Sahara Alegria)**, centre de documentation Saharienne ,sans date.P525

¹⁵ Régnier Yves: **Les Chaamba sous le régime français**, Les Editions Domat-Montchrestien, Paris, 1933.P07

¹⁶ Passager P.: **Metlili des Chaamba étude historique, géographique et médicale**/In/ Archives de l'institut Pasteur d'Algérie, T: XXXVI. N:4. décembre 1958.P526

¹⁷ إسماعيل العربي، المرجع السابق .ص165

¹⁸Cauneille Auguste: **les chaambas leur Nomadisme**, Edition du C. N. R. S, Paris 1968.p39

جماعة القصر	عدد السكان	عدد المنازل
-المرابطين	459- نسمة	16- منزل و 35 خيمة
-الشرفة	349- نسمة	11- منزل و 15 خيمة
-بني مرزوق	302- نسمة	29- منزل
-بني مزاب	231- نسمة	27- منزل
-أولاد إسماعيل	84- نسمة	04 - منزل و 15 خيمة

الجدول 2: إحصائيا السكان لعرش أولاد عبد القادر والثوامر لسنة 1896م.¹⁹

عرش أولاد عبد القادر	عدد السكان	عدد المنازل
-السوايح	647 نسمة	23 منزل و 61 خيمة
-أولاد حنيش	398 نسمة	17 منزل و 72 خيمة
-القمارة	391 نسمة	48 منزل و 71 خيمة
-أولاد عمر	362 نسمة	25 منزل و 50 خيمة
-العوامر	352 نسمة	49 منزل و 79 خيمة
عرش الثوامر (أولاد علوش)	عدد السكان	عدد المنازل
-الثوامر	550 نسمة	26 منزل و 90 خيمة
-أولاد براهيم	423 نسمة	26 منزل و 89 خيمة
-أولاد موسى	422 نسمة	25 منزل و 93 خيمة
-الجرودة	230 نسمة	20 منزل و 50 خيمة
-البهازة	146 نسمة	15 منزل و 32 خيمة
-أولاد عيسى بن موسى	180 نسمة	22 منزل و 36 خيمة
-الشلق	143 نسمة	13 منزل و 29 خيمة
-عميرات	116 نسمة	06 منزل و 25 خيمة

3. الإحتلال الفرنسي للمنطقة ومعاهدة الحماية مع بني ميزاب

بعد السيطرة الفرنسية على منطقة الأغواط سنة 1852م، بدأت إهتمامها بمنطقة ميزاب، مستغلة في ذلك النزاع القائم على

السلطة وإنقسام بني ميزاب إلى صفين صف شرقي وصف غربي²⁰.

¹⁹ Ibid.P42

²⁰ Gean Nelia ; **Ghardaia quatrième mille** ,Paris ,sans édition ,sana date ,le fonds de la bibliothèque centre de documentation Sahariennes ,p58

لهذا سارعت جماعة بني ميزاب²¹ من بن ريان لإرسال رسالة خطية للجنرال "بيليسيه" مؤرخة في 12 ديسمبر 1852م تطالب فيها بالأمان، ورد عليهم الجنرال برسالة مرسله من الأركان العامة بالأغواط بتاريخ 14 ديسمبر خاطب فيها سكان مدينة غرداية المتكونة من: مليكة، بني يزقن، العطف، بونورة، بريان، القرارة ذكرهم أن التعارف بين الطرفين قديم منذ 22 سنة خلت، وطلب منهم أن يطردوا من صفوفهم كل أعداء فرنسا وأن يرسلوا قادة الجماعة إلى سي حمزة لتقديم له خضوعهم وولائهم باعتباره وكيل السلطة الفرنسية عند بني ميزاب²².

ولم يكتف الجنرال بيليسيه بمد نفوذه إلى غرداية بل أشار في تقاريره في ضرورة إحتلالها لكونها من أهم المراكز المتقدمة ضمن نفوذ السلطة الفرنسية في الجنوب، ولتوقيع المعاهدة إنطلق وفد بني ميزاب مفوضا من مجلس عمي السعيد الأعلى وقد وقعت هذه المعاهدة - معاهدة الحماية- مع الكموندو نيدوبراي -حاكم الأغواط- يوم 22 ديسمبر 1853م²³، وتضمنت المعاهدة مايلي :

- الاعتراف بالسلطة الفرنسية .

- ضمان حماية فرنسا لانتقالات قوافلهم التجارية.

- عدم تدخل فرنسا في شؤونهم الداخلية في المجتمع المدني.

- ضمان إحترامهم لدفع مبلغ الضريبة للبايلك.

- ضمان الأمن والاستقرار الدائم والعام والحقوق للمواطنين.

- ضمان مراقبة فرنسا للسلع الأجنبية القادمة من الخارج.

- غلق الأسواق أمام القبائل المعادية لفرنسا²⁴.

وتمتضى هذه المعاهدة صارت ميزاب جزءا معترفا به تابعا للدولة الفرنسية وذلك بضريبة سنوية مقدارها 45000 ألف فرنك تتقاسمها القصور الميزابية السبعة، وظلت اتفاقيتها مع بني ميزاب تعيق تحركاتها العسكرية المشبوهة، وعندما أدركت بعدم جدواها معهم قامت بالزحف على بني ميزاب سنة 1882م، وهو ما فتح الباب لمواجهة دامية بين الميزابين وفرنسا²⁵.

4. ثورة أولاد سيدي الشيخ 1864-1880:

إن تعيين السلطات الفرنسية الاستعمارية لبوبكر بن سي حمزة مكان أبيه سي حمزة الذي كان مواليا للسلطات الفرنسية، إلا أن فرنسا قلدته منصب باشاغا لتحت من قيمته بعد ما كان أبوه يلقب بخليفة الصحراء، ولكنه بقي مواليا ومخلصا لفرنسا، ومن أهم إنجازاته هو المساعدة في القضاء على ثورة محمد بن شريف بن عبد الله، وبعد وفاته والتي كانت غامضة استلم أخوه سي سليمان بن حمزة منصب الباشاغا .

²¹ ميزابيون أو بني ميزاب يسكنون منطقة ميزاب، التي تمتد إلى الصحراء وتكون في بعض الأجزاء جزاء فيها، ويشغلون بالتجارة. ينظر: سيمون بيفافير: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو دار هومة، الجزائر، 2009، ص 125.

²² إبراهيم مياشي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، 1837-1934، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 125.

²³ يوسف بن بكير الحاج السعيد: تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، الطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 98.

²⁴ يوسف بن بكير الحاج السعيد: تاريخ بني ميزاب ونضالهم من أجل الحق في التباين، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 1992، ص 98.

²⁵ عميرواي حميدة: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916م، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص 47-48.

إن الوفاة الغامضة للبوكر جعلت من أخيه سي سليمان يتوخ الحذر ويتوجس من فرنسا؛ لأنه كان يشك بأن للسلطات الفرنسية ضلع في مقتله، ومن جهة أخرى أحست فرنسا بأن الولاء التي كانت تنظره من سليمان بن حمزة يشوبه نوع من الخروج عليها وعدم إطاعة أوامرها واشتتت رائحة التمرد، فأصبحت تضيق على سليمان بن حمزة وعمه سي لعلا وتقلص من صلاحيتهما، مما أدى إلى التمرد عليها وإعلان الثورة.

ارتبط الشعانية مع أولاد سيدي الشيخ ارتباطا وثيقا وقويا جداً، هذا الارتباط الروحي الديني كانوا يتلقونه منذ القدم في زاوية سيد الشيخ وسيد الحاج بوحفص وذلك بتقديم الهدايا والتبرعات وإقامة الولائم وحلقات الذكر.

تميز الشعانية بتأسيس زوايا في كل المناطق على غرار زاوية سيد الشيخ التي كان لها دور هام في الإتحاد وتوفير الأمن والمأوى والمأكّل والمشرب لكل من يقصدها²⁶، ومركزاً لإنطلاق مقاومتهم ضد المستعمر الفرنسي، حيث جمع لها الشعانية التبرعات من المنيعّة وورقلة وزلفانة ومتليلي وسبّسب وحاسي الحجر، وكانت هذه التبرعات لتحضير الجهاد الذي نادوا له في كل تجمعاتهم، فجمعوا الخيل والتمور والذخيرة، ولم يقتصر جمع التبرعات على الشعانية لوحدهم بل ساهم فيها بني ثور والمخادمة بعدما زالت الخلافات بينهم، وتوحدوا على هدف واحد وهو مقاومة الاحتلال الفرنسي²⁷.

1.4 مقاومة أولاد سيدي الشيخ ودور الشعانية فيها:

بعد تبني زاوية أولاد سيدي الشيخ للمقاومة ضد المستعمر الفرنسي، وعينت محمد بن عبد الله لتولي المقاومة في الصحراء، ودخلت تحت لوائه العديد من القبائل الصحراوية خاصة الشعانية²⁸.

اندلعت هذه المقاومة سنة 1864م، حيث أختيرت متليلي الشعانية لتكون منطلقاً لها، ومخيم للمقاومين والثوار، فقد خيم سي الأعلى يومي 17 و18 فيفري 1864م شمال متليلي بمنطقة (النومرات) وشرع في جمع المقاتلين والمجاهدين والمؤيدين لأولاد سيد الشيخ، حتى بلغوا نهاية فيفري 1864م أزيد من ألف مقاتل²⁹، والتحق بهم سي سليمان بن حمزة يوم 28 فيفري مع أبناء عمومته زعيم الصف الغربي الشيخ بن الطيب لتحضير واستعداد للثورة³⁰.

تم تعيين حمزة ولد أبو بكر كخليفة على الصحراء، بدءاً من البيض بحوض الساورّة إلى ورقلة في الواحات الشرقية، والذي قدم خدمات جليلة للفرنسيين إذ عمل على متابعة الشريف محمد بن عبد الله ومحاربه، وسهل انضواء مدينة متليلي الشعانية تحت لواء النفوذ الفرنسي في 20 جانفي 1854م، وكذلك المنيعّة 1861م³¹، وبعد وفاة سي حمزة توترت العلاقة بين أولاد سيد الشيخ والفرنسيين، وأصبح التوجس والتربص هو الغالب على العلاقة بينهم حتى بعد تعيين سي حمزة ولد أبو بكر خليفة على الصحراء، ولكن فرنسا سرعان

²⁶ Charles AMAT : Le M'zab et les M'zabites, Challamel et Cie Éditeur, Paris, 1888,p73.

²⁷-Ibid. p 38.

²⁸- Ibid. P 73.

²⁹-Corneille Trumlet : Histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864 ,Adolphe jour dan imprimeur libraire , Alger ,1879 ,p5 .

³⁰-Ibid. p 06.

³¹-Augustin Bernard et la Crois :Historique de la pénétration saharienne, giral tmprumieur phograveur ,Alger ,1900,p230 .

ما استفزت أولاد سيد الشيخ بسبب تنكيل هذه الأخيرة بأتباعهم بتليلي الشعابنة والمنيعية، وذلك لمشاركتهم الفعالة في ثورة الشريف بن عبد الله وزاد الأمر سوءا لمحاولتها المتكررة لتقليل نفوذ الطريقة والأسرة، خاصة بعد الوفاة المفاجئة لحمزة ولد أبو بكر في 15 أوت 1871م³² زعيم أولاد سيد الشيخ الشراقة، الذي قدم خدماته الجليلة لفرنسا لما كان خليفة لها على الصحراء، إذ حارب الشريف بن عبد الله واحتل مدينة متليلي الشعابنة لصالح الفرنسيين، وبعد وفاته عينت فرنسا أبا بكر أغا كخليفة لوالده ليتم دوره في القضاء على ثورة الشريف وأتباعه³³ إلا أن المنية وافته قبل أن يكمل غايته ليعتلي أخوه سي سليمان مقامه، وبدلا من أن يكون حليفا لفرنسا تحول إلى عدوها اللدود إنتقاما لأبيه وأخيه، وقد ساندته عمه سي الاعلى بن أبي بكر هذا الرجل الذي كان له دور الأول في التحريض والتخطيط للثورة والرفض للمسار الخياني والمتخاذل لأخيه وابن أخيه، واتخذ سي سليمان من مدينة متليلي الشعابنة مركزه ومعسكره في 28 فيفري 1864م، وساندته شعابنة متليلي وشعابنة المنيعية، وبلغ عددهم ألف من المهاري³⁴ وفي يوم 8 أفريل 1864م توجهوا نحو مخيم الجيش الفرنسي بمضبة عوينة أبو بكر شرق البيض والحقوا بها خسائر فادحة³⁵.

وقد جرت أحداث معركة عوينة بوبكر بعد أن تمكن سي الاعلى من إقناع ابن أخيه سي سليمان بن حمزة بدفعه للثورة ضد المحتل الفرنسي، حيث كلف سي الفضيل كاتبه بالتعبئة الجماعية وإبلاغ كل العروش والقبائل، خاصة الشعابنة الذين كان لهم الدور الكبير في هذه المعركة ومساعدتهم ماديا ومعنويا لأولاد سيد الشيخ.

ولم يمض شهر فيفري 1864م حتى تمت الاستعدادات واشتعلت نيران الثورة في 8 أفريل 1864م في أول معركة كانت في منطقة عوينة بوبكر شرق البيض³⁶، حيث خرج سي سليمان بقواته من الشعابنة والمهاري وأتباعه من القبائل الأخرى بقوات بلغت 3500 محارب لمتابعة حاكم تيارت بوبريط³⁷ الذي وصل إلى جهة ستين وتمركز في منطقة عوينة بوبكر لمحاصرة سي سليمان، غير أن هذا الأخير سبقه إلى ذلك وباغته بقواته والتحمت القوات في معركة ضارية هاجمت فيها قوات سي سليمان وأتباعه خيمة العقيد بوبريط وقتله سي سليمان³⁸، أما هذا الأخير فقد قتل من طرف حارس العقيد في نفس الوقت الذي قتل فيه العقيد بوبريط، وفي ذلك كتب اللواء جونشي عن معركة عوينة بوبكر معتمدا في تحريرها على تقرير مفصل حرره طبيب بيطري نجا بأعجوبة من الهلاك يقول فيه: بالنسبة لي لم تتوفر لدي معلومات غزيرة عن الهجوم المفاجئ الذي قاده سي سليمان ضد قواتنا، لقد باغتنا العرب صبيحة 8 أفريل إلى درجة أننا لم نفهم شي مما حدث³⁹.

³²- يحي بوعزيز: ثورات الجزائر، في القرنين التاسع عشر والعشرون ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص 169.

³³- نفسه، ص 170.

³⁴-Père Vellard : Le Sahara Mission et Histoire ,f 58.

³⁵-C,Trumelet : op.cit ,P15.

³⁵-أحمد بن يحي: الطريقة الشيخية وعلاقتها بالمشاركة السياسية، دار الطبع وهران، 2013، ص 39.

³⁷-العقيد بوبريط: الكسندر من مواليد 1821 بمدينة صالان بفرنسا، انتقل إلى الجزائر سنة 1839 وانخرط في الجيش الفرنسي ثم ترقى في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة عقيد وحاكم تيارت، وقتل من طرف سي سليمان بن حمزة سنة 1864. ينظر: محمود الواعي: ثورة أولاد سيد الشيخ والقبائل المؤيدة لها، مجلة الجيش، العدد 403، مديرية الاتصال والإعلام والتوجيه، الجزائر 1997، ص 07.

³⁸مالك بوحفص: ثورة اولاد سيد الشيخ 1864، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004، ص 53.

³⁹الحاج بحوص ناصري: هجرة أولاد سيدي الشيخ، مخطوط -Ghardaïa، CCDS Cot: 0198 1 00000، ورقة 6

لم نكن أبدا نتوقع هذا الهجوم القوي ولا هذه المجزرة العنيفة، لقد أحدث الهجوم فوضى عارمة في المخيم الفرنسي ولم يتمكن من الدفاع عن أنفسنا، بل رمينا بعنف في جدول الماء وأطلقت علينا النيران من كل الجهات، إنه هجوم عنيف وقوي لا يختلف عن العاصفة الهوجاء التي تخطف كل شي في طريقها، وفي خضم هذه الفوضى لم أشاهد سوى النقيب ازنارد وهو يركض نحو فرسه عاريا الرأس مضطربا، أما العقيد بوبريط والضباط الآخرون لم يتمكن من مشاهدتهم بسبب بساط هو أن الشخص يعجز عن الرؤية كل شي في خضم مثل هذه الفوضى، وعلى كل حال فإن لم يكونوا قد قتلوا فإنهم يبقون عاجزين عن الفرار، لقد هلكوا جميعا⁴⁰.

ولقد لعبت الشعانية المهاريس دور كبير في الانتصار الذي حازه أولاد سيدي الشيخ في هذه المعركة مما أرجع للقبائل الأخرى الثقة والأمل في الحرية وشجعهم على مواصلة الجهاد ضد العدو⁴¹.

ولهذا عاقبت فرنسا سكان متليلي الشعانية، إذ كان لهم نصيب كبير من الأعمال الوحشية، إذ ظلت المركز الأخير الذي تحصن به سي الأعلى وسي قدور بن حمزة، الذين توالى عليهم عروض الصلح والأمان، إلا أن هذه المفاوضات التي كانت تجري بين الطرفين، كانت منطقة متليلي مسرحا لها وذلك بسبب تواجد أعداد من زعماء أولاد سيد الشيخ بها، بالإضافة إلى العلاقة المتينة التي كانت تربطهم بشعانية متليلي.

أُستخلص من ذلك مراسلة رئيس المكتب العربي بالأغواط النقيب دوران إلى عدون بن باسعيد المؤرخة بتاريخ 29 جوان 1872م، التي جاء فيها بأن سي الأعلى قد طلب الأمان من الحاكم العام للجزائر بواسطة ابن سي النعيمي وقائد متليلي الشعانية سليمان بن مسعود⁴²، وكذلك مراسلة قايد متليلي الشعانية سليمان بن مسعود والقائد علي بن حروز المؤرخة بتاريخ 3 سبتمبر 1877م إلى حاكم الأغواط بخصوص طلبه بفتح المفاوضات مع أولاد سيد الشيخ بمتليلي الشعانية لأجل استسلامهم، حيث ذكرا بأنهما اتصلا بأولاد سيد الشيخ منهم الزبير بن بوبكر والمعراج بن النعيمي وهم على استعداد أن يقدموا إلى متليلي الشعانية بشرط ضمان أنفسهم وممتلكاتهم⁴³.

لكن هذه المفاوضات التي كانت تجري بين الأطراف أمثال سي الزبير لم يكن الهدف منها الاستسلام، بل كانت الغاية منها إعادة الاتصال بالشعانية، إلا أن الإدارة الفرنسية تفتنت لذلك وأرسلت برقية مستعجلة للجنرال دولفيردو قائد عمالة المدية فقد أمر بمنع سي الزبير من الإقامة بمتليلي الشعانية وذهب بعدها إلى تيميمون وبقي هناك إلى أن توفي بسبب الحمى يوم 25 نوفمبر 1878م⁴⁴.

⁴⁰ - مالك بوحفص: المرجع السابق، ص 50-51.

⁴¹ - حمزة بوبكر: سيدي الشيخ الصوفي الجزائري، تر: محمد حسين آل سيدي الشيخ، دون ط، دون ت، ص 114.

⁴² - Blidi Brahim Ben Youb: de l'indigénat son application aux Mozabites, imprimerie administrative et commerciale moderne, philippeville 1903.p114

⁴³ - قايد القياد سليمان بن مسعود والقايد علي بن حروز: مراسلة إلى حاكم الأغواط، متليلي 28 شعبان 1294 هـ / 6 سبتمبر 1877م.

⁴⁴ - Le General de Loverdo: Dépêche télégraphique, N 316, Médéa: 08/09/1877, A. O,fl

إن خضوع أولاد سيد الشيخ الشراقة سنة 1883م، جعل الفرنسيين يستغلون ذلك لبسط سيطرتهم على بقية المناطق الجنوبية، وكان آخر المستسلمين هو سي قدور بن حمزة الذي إلتقى بالجنرال توماسين في بريزينة شهر أفريل 1884م، وانتهت بعقد إتفاق في مدينة بريزينة الذي وقعه سي الدين بن حمزة في 20 ماي 1883م⁴⁵.

وبالرغم لما حدث لزعماء أولاد سيد الشيخ إلا أن منطقة متليلي الشعابنة وسكانها ظلوا متمسكين وأوفياء لزعماء الثورة وذلك من خلال كل مراحلها، وأول المؤازرين للثورة بعد إعلانها رغم الحملات الانتقامية التي جهزها ضباط الحملات الفرنسية ضد منطقة متليلي الشعابنة، خاصة حملة دوسونيس 1866م التي تكبدوا خلالها خسائر مادية وبشرية إنتقاما لمشاركتهم ومساندتهم لأولاد سيد الشيخ إلا أن ذلك لم يكن عائقا أمامهم وأخذوا مشعل الثورة والجهاد في ثورة الشيخ بوعمامة.

خاتمة:

من خلال دراستي لمساهمة الشعابنة في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري، وبالأخص ثورة أولاد سيدي الشيخ فقد لعب الشعابنة عامة وشعابنة متليلي خاصة فيها دورا كبيرا، حيث انطلقت ثورتهم أو بالأحرى النواة الأولى للمقاومة من منطقة متليلي الشعابنة، وذلك باشغال فتيل الثورة والذي كان عن طريق تحريض سي سليمان على الثورة ضد المستعمر الغاشم وهم من آزره وسانده بعد إعلانها . وبالرغم من الحملات الإنتقامية التي قام بها ضباط الحملات الفرنسية ضد شعابنة متليلي كحملة دو سونيس في 10 جانفي 1866م وما كان منها من خسائر بشرية ومادية كبيرة في صفوف الشعابنة، إلا أنهم ظلوا أوفياء لزعماء الثورة خلال كل مراحلها حتى استسلامهم .

ويمكن القول في الأخير بأن الشعابنة ساندوا زعماء المقاومة لصعد المستعمر الغاشم لمدة تقارب خمسين سنة، وعرقلت سيره للتوغل بالصحراء الجزائرية .

⁴⁵-E-Mangin :Notes sur l'histoire de la ghouta/In/R.A ,V38,1894,p115.